هذه الحقيقة التى توجبها الفطرة الإيمانية؟ وكيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل؟

ويقول سبحانه بعد ذلك عن أهل الكتاب :

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) ﴾

و«الحَبْر» هو لقب عند اليهود، وهو العالم. ويقال فى اللغة «حبر» أو «حِبْر» أى رجل يدقق الكلام ويزنه بأسلوب عالم. والرهبان عند النصارى والمقصود بهم المنقطعون للعبادة، فالحَبر عالم اليهود، والراهب عابد النصارى، أما عالم النصارى فيسمى «قسيس» ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا ﴾ [المائدة: ٨٢]

فإن قصدنا عالم الدين المسيحى قلنا : «قسيس» ، وإن قصدنا رجل التطبيق أى العابد قلنا: «الراهب» والراهب هو من يقول: إنه انقطع لعبادة الله فوق ما طلب الله منه من جنس ما طلب، ونعلم أنه لا رهبانية فى الإسلام(١)، ولكن الإنسان يستطيع أن يتقرب إلى الله كما يحلو له من جنس ما طلب الله منه، فإن كان الحق عز وجل قد أمر بإقامة الصلاة خمس مرات

(١) روى الإمام أحمد عن عروة قال : دخلت امرأة عثمان بن مظعون أحسب اسمها خولة بنت حكيم على عائشة وهى باذة الهيئة (أى: رثة الهيئة تاركة زينتها) فسألتها: ما شأنك؟ فقالت: زوجى يقوم الليل ويصوم النهار (أى: أنه منصرف عنها إلى قيامه وصيامه وعبادته) فدخل النبى ﷺ فذكرت عائشة ذلك له فلقى رسول الله ﷺ عثمان فقال: «ياعثمان إن الرهبانية لم تكتب علينا، أفما لك فىَّ أسوة، فوالله إنى لأخشاكم لله وأحفظكم لحدوده» أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٢٢٦) وابن حبان (١٢٨٨ ـ موارد الظمآن).

فى اليوم، فالمسلم الذى يرغب فى زيادة التقرب إلى الله يمكنه أن يصلى ضعف عدد مرات الصلاة، وإذا كان الحق سبحانه قد فرض أن تكون الزكاة بمقدار اثنين ونصف فى المائة، فالعبد الصالح قد يزيد ذلك بضعفه أو أضعافه. وهذه زيادة من جنس ما فرض الله تعالى وزيادة، وهذا يعنى فى الإسلام الدخول إلى مقام الإحسان [1]، واقرأ إن شئت قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الذاريات]

أى: أنهم قد دخلوا إلى مقام الإحسان أى ارتقوا فوق مقام الإيمان. ويزيدنا الحق علماً بمقام الإحسان فيقول :

﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الذاريات]

وسبحانه لا يطلب منا فى فروض الدين ألا نهجع [2] إلا قليلا من الليل، بل نصلى العشاء وننام إلى الفجر. لكن إنْ قام الإنسان منَّا وتهجد فذلك زيادة عما فرض الله ولكنه من جنس ما فرض الله. وكذلك الاستغفار فمن تطوع به فهو خير له. وكذلك الصدقة على غير المحتاج، فهنا زيادة فى العطاء على ما فرضه الله من الزكاة التى حُدِّدَتْ من قبل فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المعارج]

والرهبانية كانت رغبة من بعضهم فى الدخول إلى مقام الإحسان، ولكن الحق لم يفرضها عليهم؛ لأنه هو الذى خلق وعلم أزلاً قدرات من خلق،

(١) قال ابن رجب الحنبلى فى جامع العلوم والحكم (ص ٤٨): «الاحسان هو أن يعبد المؤمن ربه فى الدنيا على وجه الحضور والمراقبة، كأنه يراه بقلبه وينظر إليه فى حال عبادته، فكأن جزاء ذلك النظر إلى الله عياناً فى الآخرة. وذلك يوجب الخشية والخوف والهيبة والتعظيم، ويوجب أيضاً النصح فى العبادة وبذل الجهد فى تحسينها وإتمامها وإكمالها».

(٢) الهجوع: النوم ليلا.

لذلك قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ [الحديد : ٢٧]

هم إذن قد ابتدعوها ابتغاء رضوان الله وزيادة فى العبادة ، وليس فى ذلك ملامة عليهم ، ولكنها ضد الطبيعة البشرية ؛ لذلك لم يراعوا الرهبانية حق رعايتها ، ويقول المولى سبحانه وتعالى هنا فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا ﴾ فهل معنى ذلك أنهم يقولون للحبر أو الراهب « رب » ؟ لا ، ولكن كانت معاملتهم لهم كمن يعامل ربه ؛ لأن الله هو الذى يُحل ويحرم بـ « افعل » و « لا تفعل » ، فإذا جاء هؤلاء الأحبار وأحلُّوا شيئاً حرمه الله أو حرَّموا شيئاً أحلَّه الله، فهم إنما قد أخذوا صفة الألوهية فوصفوهم بها ؛ لأن التحليل والتحريم هى سلطة الله ، فلذلك عندما دخل عدى بن حاتم على سيدنا رسول الله ﷺ ووجد الرسول ﷺ فى عنق الرجل صليباً من الذهب أو من الفضة قال سيدنا رسول الله ﷺ : « اخلع هذا الوثن » ، ومن أدب الرجل مع الرسول خلع الصليب . وقال ﷺ: « إنكم لتتخذون الأحبار والرهبان أرباباً » . فقال الرجل : نحن لا نعبدهم . قال له رسول الله ﷺ : أو لا تطيعونهم فيما حرموا وأحلوا ؟ قال: نعم . قال: تلك هى العبادة[1] .

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ ولسائل أن يسأل : وما معنى عطف المسيح على الأرباب ، وعلى الأحبار والرهبان ؟ والإجابة : إن الذى يحلل ويحرم إن لم يكن رسولاً ، فهو إنسان يطلب

(١) عن عدى بن حاتم قال : أتيت النبى ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب ، فقال : «ياعدى اطرح عنك هذا الوثن» وسمعته يقرأ فى سورة براءة ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ .
قال : «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلُّوا لهم شيئاً استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه» . أخرجه الترمذى فى سننه (٣٠٩٥) وقال : هذا حديث غريب .

السلطة الزمنية، وذلك لا يتأتى من الرسول؛ لأن الرسول ﷺ إنما جاء ليلفت الناس إلى عبادة الله بما شرعه الله، وعيسى عليه السلام هو رسول لم يقم إلا بالبلاغ عن الله، ولكن البعض أخطأ التقدير وظن أنه ابن الله، ولذلك يتابع الحق قوله :

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾
وهكذا يذكر الحق أن الأمر لم يصدر منه سبحانه وتعالى إلا بأن يعبد من يؤمن بالرسالات الإله الواحد. ورسولنا ﷺ يقول :

« خير ما قلته أنا والنبيون: لا إله إلا الله »[1].

وأنت حين تنظر إلى «لا إله إلا الله» تجد النفى فى «لا» والاستثناء من النفى والإثبات فى «إلا»، وهذا نفى الألوهية عن غير الله وإثباتها له وحده، وحين نقول : «الله واحد» فهذا يتضمن الإثبات فقط. ويأخذ الفلاسفة الذين يملكون قوة الأداء والبيان من هذه القضية «الإثبات والنفى»، أو «الموجب والسالب»، ويقولون : كل التقاء بين موجب وسالب إنما يعطى طاقة، والطاقة يمكن استخدامها فى الإنارة أو تدار بها آلة، وكذلك الطاقة الإيمانية تحتاج إلى «سالب وموجب»، ويقول الشاعر إقبال :

إنما التوحيدُ إيجَابٌ وسَلبٌ

فيهما للنفْسِ عزمٌ ومَضَاء

ويقول سبحانه وتعالى تذييلاً للآية الكريمة : ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وحين تسمع كلمة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ فاعرف أنها للتنزيه، فلا ذات مثل ذات الله، ولا صفة مثل صفات الله، فالله غنى وأنت غنى، فهل غناك الحادث مثل غنى الله الأزلى؟ وأنت حى والله حى ، فهل حياتك الموقوتة مثل حياته؟ فحياته

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٣٥٨٥) والبيهقى فى سننه (٤/ ٨٩، ٢٨٩) قال الترمذى : هذا حديث غريب من هذا الوجه.

ذاتية وحياتك موهوبة، فسبحانه حي بذاته، ولذلك يجب أن تفرق بين اسمه «الحي» واسمه «المحيي»، فهو حي في ذاته، ومُحْي لغيره، وإن كانت الصفة لله في الذات فهي لا تتعدى إلى الغير، إن الله يوصف بها ولا يوصف بنقيضها، فتقول «حي» ولا تقول المقابل، ولكن إن قلت: «محيي» فأنت تأتي بالمقابل وتقول «مميت». وتقول: «قابض وباسط» و«رحيم وقهار».

إذن: فصفة الذات يتصف الله بها ولا يتصف بمقابلها، وأما صفة الفعل فيتصف بها ويتصف بمقابلها لأنها في غيره، فسبحانه هو مُحي لغيره، ومميت لغيره، لكنه حي في ذاته. إذن فكلمة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تعني التنزيه ذاتاً، وصفات، وأفعالاً، وإذا جاء فعل من الله، ويأتي مثله فعل من البشر، نقول: إن فعل الله عز وجل غير فعل البشر لأن فعل الله بلا علاج [1]، ولكن فعل البشر بعلاج، بمعنى أن كل جزئية من الزمن تأخذ قدراً من الفعل، كأن تنقل شيئاً من مكان إلى مكان، فأنت تأخذ وقتاً وزمناً على قدر قوتك، أما فعل الله عز وجل فلا يحتاج إلى زمن، وقوته سبحانه وتعالى لانهائية.

ولذلك حين قال سيدنا رسول الله ﷺ: لقد أسْرِيَ بي إلى بيت المقدس، قال من سمعوه: أتدعي أنك أتيتها في ليلة ونحن نَضرب إليها أكباد الإبل شهراً؟ [2] لكن لم يلتفت أحد منهم إلى أن محمداً ﷺ لم يقل: لقد ذهبت

---

(١) أي أن فعل الله سبحانه وتعالى يتم في الكون بدون معالجة أو تهيئة أسباب بل الأمر بالنسبة لله: كن فيكون.

(٢) أخرج أحمد في مسنده (١/ ٣٠٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: لما كان ليلة أسري بي وأصبحت بمكة فظعت بأمري، وعرفت أن الناس مكذبي، فقعد معتزلاً حزيناً. قال: فمر عدو الله أبو جهل فجاء حتى جلس إليه فقال له كالمستهزيء: هل كان من شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم، قال: ماهو؟ قال: إنه أسري بي الليلة، قال: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس. قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: نعم. قال: فلم ير أنه يكذبه مخافة أن يجحده الحديث إذا دعا قومه إليه» الحديث، وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس قمت في الحجر فجلا الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه» أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٣٧٧). والبخاري في صحيحه (٤٧١٠)، ومسلم (١٧٠).

وقد قال ابن إسحاق: فلما أصبح غدا على قريش، فأخبرهم الخبر فقال أكثر الناس: هذا والله الإمْر البين، والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة، أفيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة؟ (سيرة النبي لابن هشام: ٢/ ٤). والإمْرُ: هو الشيء العظيم العجيب المنكر.

إليها بقوتى، بل قال: لقد أسرىَ بى من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.
إذن: فالذى أسْرَى هو الله القوىَ القادر ولا يحتاج الله إلى زمن.

إذن: فـ﴿سُبْحَانَهُ﴾ هى تنزيه لله سبحانه وتعالى عن أى شيء يوجد فى البشر. ولا تقارن قدرة الله سبحانه وتعالى بقدرة البشر مهما كان، بل إن العمل ينسب لقدرة صاحبه، وكلما زادتَ القوة زادت القدرة والله هو القوى.
وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يشركُونَ﴾ هو تنزيه لله، ولا تجد بشراً يقول لبشر حتى من الكفار الذين يعاندون الإيمان، لايقول واحد منهم لآخر «سبحانك» لأن التنزيه أمر يختص به الله عز وجل.

والناس تضع أسماء أولادها، فالأسماء مقدور عليها من البشر، ولكنك لاتجد كافراً معانداً محاربًا لدين الله عز وجل يسمى ابنه «الله» فالمؤمن لا يجرؤ على هذه التسمية لأنه يؤمن بالله، والكافر لا يجرؤ عليها أبدا بقدرة الله وقهره. لذلك فكلمة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ ولفظ الجلالة «الله» لفظان يختص بهما الله وحده بالقدرة المطلقة لله سبحانه وتعالى، وسبحانه القائل:

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾ [مريم]

إذن: فالله سبحانه وتعالى - بالقدرة والقهر - حجز ألسنة البشر جميعاً أن يقول أحدهم لأحد: «سبحانك»، أو أن يسمى أحد ابنه «الله».

والله عز وجل يقول هنا: ﴿لا إله إلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشرِكُونَ﴾، وموقف المشركين وأهل الكتاب واقع تحت هذه الآية؛ لأن منهج السماء لا يأتى إلا إذا عَمَّ الفساد والله سبحانه وتعالى يريد من الإنسان الخليفة فى الأرض أن يكون صالحاً ومصلحاً، وأقلُّ درجات الصلاح أن تترك الصالح فلا تفسده، فإن استطعت أن ترتقى به فهذا هو الأفضل. فإن كانت هناك بئر يشرب منها الناس، فالصلاح أن تترك هذه البئر ولاتردمها، والأصلح من ذلك أن تحمى

جدرانها بالطوب حتى لاتنهار الأتربة وتسُدَّها، وأن تحاول أن تسهل حصول الناس على الماء من البئر، والأصلح منه أن تصنع خزانا عاليا، ومن هذا الخزان تمتد المواسير ليصل الماء إلى الناس فى منازلهم بدون تعب، هذا إصلاح لأنك بذلك إنما تأخذ بأسباب الحق القائل عن تميز الفكر؛ عند ذى القرنين:

﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥)﴾

[الكهف]

أى: أن الله سبحانه وتعالى أعطى لذى القرنين الأسباب، وهو زَادَ باجتهاده أسباباً أخرى؛ إذن: فالحق سبحانه يريد من الإنسان أن يُصْلح فى الأرض حتى يسعد المجتمع بأى إصلاح فى الأرض ويستفيد منه الكل، ولذلك يعطى الحق سبحانه وتعالى اختيارات فى أشياء ولا يعطيها فى أشياء أخرى، فالإنسان له اختيار فى أن يصلى أو لا يصلى، يتصدق أو لا يتصدق، يعمل أو لا يعمل إلى آخر ما نعلمه، ولكن الكون الأعلى محكوم بالقهر، فالشمس والقمر والنجوم والهواء والماء وكل هذا له نظام دقيق، فلا الشمس ولا القمر ولاالنجوم، ولا غيرها من الكون الأعلى يخضع لاختيار الإنسان، وإلا لفسد الكون. وكل شيء مقهور سليم بالفطرة ولا يحدث فساد إلا فى الشيء الذى فيه اختيار للإنسان؛ لأن الاختيار قد يتبع الشهوة وهوى النفس، حتى المخلوقات المقهورة كالحيوانات التى سخرها الله للإنسان لايأتى منها الشر. بل إن مُخلَّفاتها تُستخدم فى زيادة خصوبة الأرض. ولكن الأشياء التى صنعها الإنسان ملأت أجواء الدنيا بالسموم ولوثت الجو؛ لأن الأولى مخلوقة بهندسة إلهية، والثانية بهندسة بشرية علم صانعها أشياء وغابت عنه أشياء.

وقد يعتقد الناس أن هناك بعضاً من الاكتشافات قد حلَّتْ مشكلات الكون، ثم بعد ذلك وعندما تمر السنوات يعرفون أنها جاءت بالشقاء للبشرية، ولعل تلوث البيئة الذى بدأ يؤثر على حياة الكون أخيراً يلفتنا إلى ذلك، حتى

إن الإنسان الذى قطع الأشجار وأزال الغابات التى خلقها الله فى هذا الكون لتكون مصدراً للهواء النقى وأنشأ بدلاً منها مصانع ومُدناً؛ بدأ الآن يحاول أن يعيد زراعة هذه الأشجار بعد أن علم أن تدخله فى الكون قد أفسد جَوّه وماءه وأفسد على جميع الكائنات حياتهم، ولو أن الإنسان المختار عاش فى الدنيا وفقاً لمنهج الله تعالى لاستقام أمر الدنيا ، كما استقام الكون الأعلى. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) ﴾ [الرحمن]

إذن : فالميزان للعلويات لا يختل أبداً، فإذا عرفتم ذلك فنَفّذوا أمر الحق سبحانه وتعالى فى قوله:

﴿ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ [الرحمن: ٨]

فإذا سرتم على ضوء منهج الله تعالى، تستقيم أموركم الدنيا كما استقامت أموركم العليا، وها هو ذا الكون أمامكم يسير منضبطاً، وهذا شأن الشىء الذى فيه اختيار للإنسان؛ إنْ لم يسرْ على منهج الله عز وجل تجدوه غير مستقيم. وعلى هذا إذا رأيت عورة فىَ الكون من أى لون، فاعلم أن منهجاً من مناهج الله قد عُطّل.

ولذلك نجد ـ أيضاً ـ أن المفسدين ساعة يرون أن مصلحاً قد جاء ليضرب على أيدى المفسدين، تجدهم يحاولون إفساده وجذبه إليهم ليعيش فسادهم، وإذا لم يتحقق لهم ذلك فهم يقفون أمام هذا المصلح لأنهم إنما يعيشون بالفساد وعلى الفساد، ويصنعون لأنفسهم السيادة والجبروت ويستعبدون غيرهم، وحين يرى المفسدون رجلاً يريد أن يعدل ميزانَ الكون فهم يحاربونه.

وأنت حين تشترى سلعة، فالبائع يزنُ لك بمقدار ما تدفع من ثمن، ويحتاج

البائع إلى ميزان منضبط ليزنَ لك به ما تشتريه، فإن كان بائعاً مخادعاً، فهو يعبث بالميزان ليبيع لك الأقل بالثمن الأكبر، وليبخسك حقك. ومثل هذا البائع مثل المفسدين الذين يرهقهم أن يأتي مصلح يعيد ميزان الكون لما أمر الله عز وجل من إقامة العدل وإصلاح المعوج.

ومن قبل قلنا: إنَّ الحق ضرب المثل فجعل له سبحانه نورين.. النور الأول حسى وهو فى الماديات، والنور الثانى معنوى وهو فى القيم، وكما أن النور الحسى يهدى الإنسان إلى طريقه دون أن يصطدم بأى شىء؛ لأن الإنسان إن اصطدم بشىء أقل منه، فإنه يحطمه، وإذا كان الشىء أكبر من الإنسان فهو يحطم الإنسان، وهكذا يلعب النور دوراً فى الحسيات، وكذلك جعل الله للمعنويات نوراً، لذلك قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥]

والمفسد يكره أن يوجد مثل هذا النور، بل يريد أن يطفئه، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝٣٢﴾

لكن هل يستطيعون أن يطفئوا نور الله؟ لا؛ لأن الإنسان فى الأمر الحسّى لايستطيع أن يطفىء النور؛ لأن هناك فَرقاً بين مصدر النور وبين أداة التنوير، فالإنسان يمكنه أن يحطم الدائرة الزجاجية التى تحمل النور، لكن لا أحد بإمكانه أن يطفىء «المُنوِّر» والمنورُ الأعلى هو الله، ولا أحد يستطيع إطفاءه. ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يطفئُوا نُورَ الله بأفْواهِهِمْ ويَأْبَى الله﴾ أى: لا يريد الله شيئاً ﴿إلاَّ أن يُتِمَّ نُورَهُ﴾، وسبحانه قد أرسل الرُّسُل حاملة لمنهج النور ولم يرسل الرسل

لينتصر عليهم الكفر، ولذلك يقول لنا : ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ﴾ أي لا يريد ﴿إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ﴾ .

ويتابع الحق جل وعلا قوله :

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

والرسول ﷺ إنما جاء بالقيم التي تهدى إلى الطريق المستقيم ، جاء بالدين الحق . فكلمة «دين» أخذَتْ واستعملت أيضاً في الباطل ، ألم يأمر الحق سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يقول لكفار ومشركي مكة :

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون]

فهل كان لهم دين؟ نعم كان لهم ما يدينون به مما ابتكروه واخترعوه من المعتقدات ؛ لكن ﴿دين الحقّ﴾ هو الذى جاء من السماء .

﴿هُوَ الذى أرسلَ رَسُولَهُ بالهُدَى ودين الحقِّ ليُظْهِرَهُ عَلَى الدِّين كُلِّه﴾ ولنلحظ أن الحق سبحانه وتعالى جاء بهذا القول ليؤكد أن الإسلام قد جاء ليظهر فوق أى ديانة فاسدة، ونحن نعلم أن هناك ديانات متعددة جاءت من الباطل، فسبحانه القائل :

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَٰوَاتُ وَالأَرْضُ ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون]

ونتوقف عند قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿عَلَى الدِّين كُلِّه﴾، فلو أن الفساد كان فى الكون من لون واحد، كان يقال ليظهره على الدين الموجود الفاسد، ولكنَّ هناك أدياناً متعددة؛ منها البوذية وعقائد المشركين، وديانات أهل الكتاب والمجوس الذين يعبدون النار أو بعض أنواع من الحيوانات،

وكذلك الصابئة [١]. ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى لا يريد أن يظهر دينه ؛ الذى هو دين الحق على دين واحد ؛ من أديان الباطل الموجودة ، ولكن يريد سبحانه أن يظهره على هذه الأديان كلها، وأن يعليه حتى يكون دين الله واقفاً فوق ظَهْر هذه الأديان كلها، والشيء إذا جاء على الظَّهْر أصبح عالياً ظاهراً. والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ [الكهف: ٩٧]

أى: أن يأتوا فوق ظهره. وكل الأديان هى فى موقع أدنى بكثير من الدين الإسلامى. بعض الناس يتساءل: إذن كيف يكون هناك كفار ومجوس وبوذيون وصابئون وأصحاب أديان أخرى كاليهودية والنصرانية ، فما زالت دياناتهم موجودة في الكون وأتباعها كثيرون ، نقول: لنفهم معنى كلمة الإعلاء، إن الإعلاء هو إعلاء براهين وسلامة تعاليم، بمعنى أن العالم المخالف للإسلام سيصدم بقضايا كونية واجتماعية ، فلا يجد لها مخرجاً إلا باتباع ما أمر به الإسلام ويأخذون تقنيناتهم من الإسلام، وهم فى هذه الحالة لا يأخذون تعاليم الإسلام كدين، ولكنهم يأخذونها كضرورة اجتماعية لا تصلح الحياة بدونها. وأنت كمسلم حين تتعصب لتعاليم دينك، فليس فى هذا شهادة لك أنك آمنت، بل دفعك وجدانك وعمق بصيرتك لأنْ تؤمن بالدين الحق ، ولكن الشهادة القوية تأتى حين يضطر الخصم الذى يكره الإسلام ويعانده إلى أن يأخذ قضية من قضايا الإسلام ليحل بها مشكلاته، هنا تكون الشهادة القوية التى تأتى من خصم دينك أو عدوك. ومعنى هذا أنه لم يجد فى أى فكر آخر فى الكون حلاً لهذه القضية فأخذها من الإسلام.

فإذا قلنا مثلاً: إن إيطاليا التى فيها الفاتيكان الذى يسيطر على العقائد

(١) الصابئة: قوم تركَّب دينهم بين اليهودية والمجوسية. وقال الخليل: هم قوم يشبه دينهم دين النصارى، إلا أن قبلتهم نحو مهب الجنوب، يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام. انظر: تفسير القرطبى (١/ ٤٧١) والملل والنحل للشهرستانى (٢/ ٦٢) ونشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام للدكتور على سامى النشار (ص ٢١٣ وما بعدها).

المسيحية فى العالم الغربى كله، وكانت الكنيسة الكاثوليكية فى الفاتيكان تحارب الطلاق وتهاجم الإسلام لأنه يبيح الطلاق، ثم اضطرتهم المشكلات الهائلة التى واجهت المجتمع الإيطالى وغيره من المجتمعات الأوروبية إلى أن يبيحوا الطلاق؛ لأنهم لم يجدوا حلاً للمشكلات الاجتماعية الجسيمة إلا بذلك.

ولكن هل أباحوه لأن الإسلام أباحه ،أم أباحوه لأن مشاكلهم الاجتماعية لا تُحلُّ إلا بإباحة الطلاق؟ وساعة يأخذون حلاً لقضية لهم من ديننا ويطبقون الحل كتشريع، فهذه شهادة قوية، يتأكد لهم بها صحة دين الله ويتأكد بها قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ﴾، وبالله لو كان الإظهار غلبة عقدية، بمعنى ألا يوجد على الأرض أديان أخرى، بل يوجد دين واحد هو الإسلام لما قال الحق هنا : ﴿وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرونَ﴾ ولما قال فى موضع آخر من القرآن : ﴿وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ﴾ وهذا يعنى أن الحق سبحانه وتعالى قد جعل من المعارضين للإسلام من يظهر الإسلام على غيره من الأديان لا ظهور اقتناع وإيمان، لا ، بل يظلون على دينهم ولكن ظروفهم تضطرهم إلى أن يأخذوا حلولاً لقضاياهم الصعبة من الإسلام. ومثال آخر من قضية أخرى، هى قضية الرضاعة، يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾

[البقرة: ٢٣٣]

وقامت فى أوروبا وأمريكا حملات كثيرة ضد الرضاعة الطبيعية، وطالبوا الناس باستخدام اللبن المجفف والمصنوع كيميائياً بدلاً من لبن الأم، وكان ذلك فى نظرهم نظاماً أكمل لتغذية الطفل، ثم بعد ذلك ظهرت أضرار هائلة على صحة الطفل ونفسيته من عدم رضاعته من أمه. واضطر العالم كله إلى أن يعود إلى الرضاعة الطبيعية وبحماسة بالغة. هل فعلوا ذلك تصديقاً للقرآن

الكريم أم لأنهم وجدوا أنه لا حَلَّ لمشكلاتهم إلا بالرجوع إلى الرضاعة الطبيعية؟

وكذلك الخمر نجد الآن حرباً شعواء ضد الخمر في الدول التي أباحتها من قبل وتوسعت فيها، ولكن شنُّوا عليها هذه الحرب بعد أن اكتشف العلم أضرارها على الكبد والمخ والسلوك الإنساني، هذا هو معنى ﴿لِيُظْهِرَهُ على الدِّين كُلِّه﴾ أي: يجعله غالباً بالبرهان والحجة والحق والدليل على كل ما عداه. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّين كُلِّه ولَوْ كَرِهَ المشْرِكُونَ﴾ فقد ظهر هذا الدين وغلب في مواجهة قضايا عديدة ظهرت في مجتمعات المشركين والكافرين الذين يكرهون هذا الدين ويحاربونه، وهو ظهور غير إيماني ولكنه ظهور إقراري، أي رغماً عنهم.

وبعد أن بيَّن الله سبحانه وتعالى أن الأحبار والرهبان لا يؤمنون بالله الإيمان الصحيح، ولا باليوم الآخر بالشكل السليم، ويحلون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله، ويتخذهم أتباعهم أرباباً من دون الله. هنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾

وبعد أن شرح سبحانه لنا ما يدور في ذواتهم، وانحرافهم عن منهج الله تعالى، والغرق في حب الدنيا وحب الشهوات، وهم قد اشتروا بآيات الله

ثمناً قليلاً، وحرَّفوا تعاليم السماء حتى يأكلوا أموال الناس بالباطل، ولكن هل الأموال تؤكل؟ طبعاً لا، بل نشترى بالمال الطعام الذى نأكله، فلماذا استخدم الحق سبحانه عبارة ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ﴾؟ أراد الحق سبحانه وتعالى بذلك أن يلفتنا إلى أنهم لا يأخذون المال على قدر حاجتهم من الطعام والشراب، ولكنهم يأخذون أكثر من حاجتهم ليكنزوه (١).

ولذلك يأتى قوله تعالى فى ذات الآية أنهم ﴿يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. هم إذن أكلوا أموال النَّاس بالباطل، مصداقاً لقول الحق سبحانه ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ ومعنى ذلك أنَّ هناك أكْلاً من أموال الناس بالحق فى عمليات تبادل المنافع، فالتاجر يأخذ مالك ليعطيك بضاعة؛ ويذهب التاجر ليشترى بها بضاعة وهكذا، وقانون الاحتياط هنا فى أن يكون هناك رهبان وأحبار محافظون على تعاليم الدين، ولا يأكلون أموال الناس بالباطل، وهذا ظاهر فى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ ولم يقل جل جلاله: كل الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل، بل قال ﴿إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ﴾؛ لأنه قد يوجد عدد محدود من الأحبار والرهبان ملتزمون، والله لا يظلم أحداً؛ لذلك جاء بالاحتمال. فلو أن الله سبحانه وتعالى عمَّم ووُجد منهم من هو ملتزم بالدين. فمعنى ذلك أن يكون القرآن الكريم لم يُغطِّ كل الاحتمالات، ومعاذ الله أن يكون الأمر كذلك؛ لأن الحق سبحانه وتعالى فى قرآنه يصون الاحتمالات كلها.

إذن: فاستيلاء بعض من هؤلاء الأحبار والرهبان على أموال الناس لا يكون بالحق، أى لا يحصلون فقط على ما يكفيهم، بل بالباطل أى بأكثر مما

(١) قال القرطبى فى تفسير الآية (٤/٣٠٤٩): «كانوا يأخذون من أموال أتباعهم ضرائب وفروضاً باسم الكنائس والبيع وغير ذلك، مما يوهمونهم أن النفقة فيه من الشرع والتزلف إلى الله تعالى. وهم خلال ذلك يحجبون تلك الأموال، كالذى ذكره سلمان الفارسى عن الراهب الذى استخرج كنزه» والتزلّف هو: التقرب.

يحتاجون. وهم يأخذون المال ليصدوا به عن سبيل الله، وهم فى سبيل الحصول على الأموال الدنيوية؛ يُغيِّرون منهج الله بما يتفق مع شهوتهم للمال، وما يحقق لهم كثرة الأموال التى يحصلون عليها، ولهذا تأتى العقوبة فى ذات الآية فيقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ والكنز مأخوذ من الامتلاء والتجمع، ولذلك يقال : «الشاة مكتنزة»، أى مليئة باللحم وتجمَّع فيها لحمٌ كثير.

إذن : فيكنزون أى يجمعون، وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾؛ وهذان المعدنان هما أساس الاقتصاد الدنيوى، فقد بدأ التعامل الاقتصادى بالتبادل، أى سلعة مقابل سلعة، وهى ما يسمى عمليات المقايضة، وعندما ارتقى التعامل الاقتصادى اخترعت العملة التى صارت أساساً للتعامل بين الناس والدول. والعملة من بدايتها حتى الآن ترتكز على الذهب والفضة. وحتى عندما وجدت العملة الورقية، كان لا بد أن يكون لها غطاء من الذهب لكى تصبح لها قيمة اقتصادية؛ لأنَّ العملة الورقية لا يكون لها قيمة إلا بما يغطيها من الذهب والفضة.

ومن إعجاز القرآن الكريم أن الحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن الذهب والفضة وهما معدنان، يجعلهما الأساس فى النقد والتجارة، ولقد وجدت معادن أخرى أغلى من الذهب وأغلى من الفضة كالماس مثلاً. لكن لايزال الأساس النقدى فى العالم هو الذهب والفضة. وعلى مقدار رصيد الذهب الذى يغطى العملة الورقية ترتفع قيمة عملة أى بلد أو تنخفض.. فمثلاً فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى كان النقد المتداول ثمانية ملايين جنيه، ورصيدنا من الذهب عشرة ملايين جنيه فيكون الفائض من الذهب مليونى جنيه، وبذلك كانت قيمة الجنيه المصرى تساوى جنيهاً من الذهب مضافاً إليه قرشان ونصف القرش. والذى يهبط بالنقد إلى الحضيض أن يكون رصيد

الذهب قليلاً وكمية النقد المتداولة كثيرة، وهكذا يبقى الذهب هو الحجة والأساس في الاقتصاد العالمي.

إذن: فالحق سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة أراد أن يلفتنا إلى أن الذهب والفضة هما أساس التعامل في تسيير حركة العالم الاقتصادية، وأن هذا التعامل يقتضي الحركة الدائمة للمال؛ لأن وظيفة المال هي الانتفاع به في عمارة الأرض، ولو أنك لم تحرك مالك وكنت مؤمناً، فإنه ينقص كل عام بنسبة ٢,٥٪ وهي قيمة الزكاة. ولذلك يفنى هذا المال في أربعين سنة. فإن أراد المؤمن أن يُبقي على ماله؛ فيجب أن يديره في حركة الحياة ليستثمره وينميه ولا يكنزه حتى لا تأكله الزكاة؛ وهي نسبة قليلة تُدفَعُ من المال. ولكن إذا أدار صاحب المال مايملكه في حركة الحياة، فسينتفع به الناس وإن لم يقصد أن ينفعهم به؛ لأن الذي يستثمر أمواله مثلاً في بناء عمارة ليس في باله إلا ما سيحققه من ربح لذاته، ولكن الناس ينتفعون بهذا المال ولو لم يقصد هو نفعهم؛ فمن وضع الأساس يأخذ أجراً، ومن جاء بالطوب يأخذ قدر ثمنه، ومن أحضر أسمنتاً أخذ، ومن جاء بالحديد أخذ، والمعامل التي صنعت مواد البناء أخذت، وأخذ العمال أجورهم؛ في مصانع الأدوات الصحية وأسلاك الكهرباء وغيرها، والذين قاموا بتركيب هذه الأشياء أخذوا، إذن: فقد انتفع عدد كبير في المجتمع من صاحب العمارة، وإن لم يقصد هو أن ينفعهم. ولذلك فإن الذي يبني عمارة يقدم للمجتمع خدمة اقتصادية ينتفع بها عدد من الناس، وكذلك كل من يقيم مشروعاً استثمارياً.

إذن: سبحانه وتعالى لايريد من المال أن يكون راكداً، ولكنه يريده متحركاً ولو كان في أيدي الكافرين؛ لأنه إذا تحرك أفاد الناس جميعاً فيحدث بيع وشراء وإنتاج للسلع وإنشاء للمصانع، وتشغيل للأيدي العاملة إلى غير ذلك، ولكن إن كنز كل واحد منا ماله فلم يستثمره في حركة الحياة، فالسلع لن تستهلك، والمصانع ستتوقف، ويتعطل الناس عن العمل.

وكما يحث الإسلام على استثمار المال، يطالبنا أيضاً بألا يذهب المال إلى الناس بغير عمل؛ حتى لا يعتادوا على الكسب مع الكسل وعدم العمل. ولذلك قيل: إذا كثر المال ولم تكن هناك حاجة إلى مشروعات جديدة، فلا تترك الناس عاطلين؛ بل عليك أن تأمرهم ولو بحفر بئر ثم تأمرهم بطمّها أي ردمها، في هذه الحالة سيأخذ العمال أجر الحفر والردم، فلا تنتشر البطالة ويتعود الناس أن يأكلوا بدون عمل؛ لأن هذا أقصر طريق لفساد المجتمع.

إذن: فالحق سبحانه وتعالى يريد للمال أن يتحرك ولا يكنز؛ ولذلك قال المولى سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأنهم بكنزهم المال إنما يُوقِفُونَ حركة الحياة التي أرادها الله تعالى لكونه. وأنت ترى العالم الآن يعيش في غائلة البطالة؛ لأن المال لايتحرك لعمارة الكون، بل هناك من يكتنزون فقط.

ولقائل أن يقول: ولكن الناس الآن يتعاملون بالنقد الورقي، بينما ذكر الله سبحانه وتعالى الذهب والفضة؛ نقول: إن العملة الورقية ليست نقداً بذاتها، ولكنها استخدمت لتعفي الناس من حمل كميات كبيرة وثقيلة من الذهب والفضة، قد لا يقدرون على حملها، إذن فهي عملية للتسهيل، وهي منسوبة إلى قيمتها ذهباً، إذن: فالذين يكنزون العملة الورقية ولاينفقونها فيما يعمر بها الكون وتتم عمارته تنطبق عليهم الآية الكريمة [1].

ولكن الكنز في هذه الآية لا يأتي فقط بمعنى الجمع؛ ولكنه أيضاً بمعنى أنهم لايؤدون حق الله فيها. ولذلك فإن المال الذي أخرجتَ زكاته لا يُعدُّ كنزاً، لأنه يتناقص بالزكاة عاماً بعد آخر؛ أما المال المكنوز فهو المال الذي لا تُؤدَّى زكاته.

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤/٣٠٤٩): «الكنز أصله في اللغة الضم والجمع، ولا يختص ذلك بالذهب والفضة. ألا ترى قوله ﷺ: «ألا أخبركم بخير مايكنز المرء: المرأة الصالحة» أي يضمه لنفسه ويجمعه. وخص الذهب والفضة بالذكر لأنه مما لايطلع عليه بخلاف سائر الأموال. قال الطبري: الكنز كل شيء مجموع بعضه إلى بعض، في بطن الأرض كان أو على ظهرها». والحديث الذي ذكره القرطبي هنا أخرجه أبو داود في سننه (١٦٦٤) والحاكم في مستدركه (١/٤٠٩) (٢/٣٣٣) وصححه وأقره الذهبي في الموضع الأول.

والذى يملك مالاً مهما كانت قيمته ويؤدى حق الله فيه لا يعتبر كانزاً للمال. بل الكنز فى هذه الحالة ما لم يؤد فيه حق الله [1].

وإذا عُدنا إلى نص الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا﴾ نتساءل: لماذا لم يقل الله : ولاَ ينفقونهما مع أنهما معدنان؟ ونقول: إن الحق سبحانه وتعالى استخدم أسلوب الجمع؛ لأن الذهب يطلق إطلاقات كثيرة، فهناك من يملك ألف دينار من الذهب، وغيره يملك مائة دينار من الذهب، وثالث ليس لديه إلاَّ دينار ذهبىّ واحد وكذلك الفضة، وما دام الجمع هنا موجوداً فلا بد أن تستخدم ﴿يُنفِقُونَهَا﴾ .

ولم تقل الآية الكريمة: والذى يكنز. ولكنها قالت: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ﴾، إذن: فالمخاطبون متعددون، فهذا عنده ذهب، وهذا عنده ذهب، وثالث عنده فضة، إذن فلا بد من استخدام صيغة الجمع. ويلفتنا القرآن الكريم إلى هذه القضية فى قوله تعالى:

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات: ٩]

ولم يقل «اقتتلا» لأن الطائفة اسم لجماعة مكونة من أفراد كثيرين، فإذا جاء القتال لاتقوم طائفة وتمسك سيفاً وتقاتل الثانية، وإنما كل فرد من الطائفة الأولى يقاتل كل فرد من الطائفة الثانية، إذن فهما طائفتان ساعة السلام، ولكن ساعة الحرب يتقاتل كل أفراد الطائفة الأولى مع كل أفراد الطائفة الثانية. ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿اقْتَتَلُوا﴾، ولم يقل «اقتتلا». أما فى حالة الصلح فقد قال سبحانه وتعالى:

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]

واستخدم هنا «المثنى» لأننا ساعة نصلح بين طائفتين، لا نأتى بكل فرد من الطائفة الأولى ونصلحه على كل فرد من الطائفة الثانية، ولكن نأتى بزعيم

(١) قال ابن عمر: ماأدّى زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين، وكل مالم تؤدّ زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض. ذكره القرطبى فى تفسيره. وقال: «ومثله عن جابر، وهو الصحيح».

الطائفة الأولى ونصالحه على زعيم الطائفة الثانية فيتم الصلح. ولذلك هنا تجب التثنية.

وكذلك فى قوله تعالى: ﴿وَالذينَ يَكْنِزونَ الذَّهبَ والفضَّةَ﴾ لم يقل ولاينفقونهما، ولكن قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ يُنفقُونَهَا فى سَبيل الله﴾ والإنفاق فى سبيل الله يشمل مجالات متعددة، ففى سبيل الله تحدث حركة فى المجتمع يستفيد منها الناس، فحين تُخْرجُ الزكاة يستفيد منها الناس، وحين تُجهَّزُ بها جيوش المسلمين يستفيد منها الناس، ونظرية عدم كنز المال ربما ظهرت حديثاً فى الاقتصاد العالمى ولكنها موجودة منذ نزول القرآن الكريم.

فأنت إن أنفقت ولم تكنز حدث رواج فى السوق. والرواج معناه إيجاد العمل ووسائل الرزق. وإيجاد الحافز الذى يؤدى إلى ارتقاء البشرية، وأنت حين تشترى لبيتك غسالة أو ثلاجة أو بنيت بيتاً صغيراً فإنك تُوجدُ رواجاً اقتصادياً فى المجتمع. وفى نفس الوقت ارتقيت بوسائل استخداماتك. والرواج يدفع إلى اكتشاف الأحسن الذى يفيد البشرية، ولكن إذا كنزت كل مالك ساد الكساد الاقتصادى.

وليس معنى ذلك أن ينفق صاحب المال كل ماله وزيادة؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد الوسط فى كل الأشياء. ولذلك يقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾

[الفرقان]

والحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية يحذر من سفاهة الإنفاق، وعدم الإبقاء على جزء من المال لمواجهة أى أزمة مفاجئة. لكنك إن قترت حدث كساد فى السوق وتوقف الإنتاج وتعطل العمال، والإسلام يريد نفقة معتدلة توجد الرواج السلعى، وادخاراً تستخدمه فى الارتقاء بحياتك ومواجهة الأزمات.

والإنفاق أنواع : إنفاق فى المساوى لإبقاء الحركة الدائمة بين المنتج والمستهلك، وإنفاق فى غير المساوى بإعطاء الزكاة للفقير والمحتاج والمعدم، والزكاة تنقى المجتمع من مفاسد كثيرة (١) ؛ فهى تمنع الحقد بين الناس ؛ لأن الفقير إذا وجد من يعطيه فهو يتمنى له دوام النعمة حتى يستمر العطاء فلا يسخط الفقير على الغنى، والغنى والفقير متساويان فى الانتفاع ؛ لأن الفقير عندما يأخذ لا يسخط على أنه فقير ، ولكنه يحس بالعطاء حوله، والغنى حين يعطى يحس أن هذا أمان له ؛ لأنه إن ذهبت عنه النعمة فسوف يجد من يعطيه.

وهكذا يحدث توازن فى المجتمع بين الناس، فلا يوجد من لا يستطيع الحصول على ضروريات الحياة، ولا يوجد من لديه فائض يحبسه عن الناس (٢). ولهذا يدعونا الإيمان إلى العمل بما يزيد عن قدر الحاجة، ليكون هناك فائض للزكاة والصدقة. والإنسان إذا عمل فإنه لايفيد نفسه فقط بل يفيد المجتمع أيضاً. فسائق «التاكسى» مثلاً إذا كسب مائة جنيه فى اليوم قد يظن أنه نفع نفسه فقط، ولكنه فى الحقيقة نفع المجتمع كله بأن يسَّر على العباد مصالحهم، فنقل هذا إلى عمله؛ ونقل ذلك إلى المستشفى، ونقل غيرهما إلى السوق ليشترى ما يحتاج إليه، ونقل رابعاً ليزور قريباً أو ليحقق مصلحة وهكذا.

إذن : فالذى يعمل يكون عمله خيراً لنفسه وخيراً للمجتمع، وإن عمل كل الناس على قدر حاجاتهم فقط، فمن أين يعيش غير القادر على العمل؟ من أين يعيش المستحق للزكاة والصدقة؟ إنه لايعيش إلا بفائض القادر على

---

(١) ولذلك يقول عز وجل فى هذه السورة ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (التوبة : ١٠٣)

(٢) وقد أرشد الرسول ﷺ المسلمين إلى هذا ، فقال فيما رواه عنه أبو سعيد الخدرى : «من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له» قال أبو سعيد: فذكر من أصناف المال ما ذكر ، حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل. أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٢٨) وأحمد فى مسنده (٣/ ٣٤) وأبو داود فى سننه (١٦٦٣).

العمل، ولذلك لابد للإنسان المسلم أن يعمل على قدر طاقته، وليس على قدر حاجته. والعمل على قدر الحاجة يجعله يوفى بحاجات من يعولهم، ولايضطرهم إلى أن يمدوا أيديهم للآخرين؛ أى أنه يقيهم شر الحاجة. أما العمل على قدر الطاقة فيجعله يأخذ حاجته، ويعطى لغير القادر ما يقيم حياته، وبذلك يقدم الخير لنفسه ومن يعولهم وللآخرين.

إن المجتمع الذى يجد فيه غير القادر حاجته، هو مجتمع يملؤه الاطمئنان بالنسبة للقادر وغير القادر. ونحن نعلم أننا نعيش فى دنيا أغيار، ولا يوجد من يدوم غناه أو من يدوم فقره؛ لأن دوام الحال من المحال، إن عاش الغنى فى مجتمع متكافل يجد فيه الفقير حاجته فهو لن يخشى تقلبات الزمن؛ لأنه وهو الآن يعطى الفقير، إن أصبح فقيراً فسوف يجد مقومات حياته، والفقير إذا أغناه الله تعالى فسيذكر أنه كان يأخذ من الأغنياء، فيبادر ليعين الفقراء كنوع من رَدِّ الجميل. وبذلك يعيش المجتمع كله حياة آمنة، كما أن الحياة فى مثل هذا المجتمع إنما تهيىء الاطمئنان للناس على أولادهم وذريتهم، ذلك أن الأعمار بيد الله، وعندما يحس الإنسان بأنه إن مات وترك أولاداً صغاراً ضعافاً فسوف يتكفل المجتمع بهم، عندئذ يحس بالأمان فى حياته، ولكن إذا كان المجتمع قاسياً يضيع فيه حق اليتيم، فالأب يعيش غير مطمئن على أولاده الصغار، ولهذا نجد أن الحق تبارك وتعالى قد أمر بكفالة اليتيم [1]؛ ليعوضه عن أب واحد بآباء متعددين يَرْعَونهُ، فَيُحسُّ الأب بالأمان وتُحس الأم بالأمان ويحس الصغار بالأمان، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

(١) كفالة اليتيم من الأمور التى حثَّ عليها الإسلام، وورد ذكر اليتيم واليتامى فى القرآن (٢٣ مرة)، وذلك من نحو قوله تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ الآية (النساء: ٣٦).

وانظر إلى القرآن وهو يوصى كافلى اليتامى بالتعامل بحس إيمانى نابع من قلوبهم وضمائرهم مع أموال هؤلاء اليتامى فيقول عز وجل ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (النساء: ٦).

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ⑨ ﴾ [النساء]

وتقوى الله تكون ضماناً فى أن يكفل المجتمع اليتيم؛ فيدخل الأمن فى قلب كل أب يخشى أن يموت وأولاده صغار.

إذن: فساعة يكفل المجتمع اليتيم فالطفل لن يسخط على القدر الذى حرمه من أبيه لأنه وجد آباء يرعونه، وهناك قصة يرويها عدد من إخواننا العلماء، فقد مات زميل من زملائهم وأولاده صغار، وكانت الأم تبكى على أطفالها لأنهم تيتموا، ثم مرت السنوات وكبر الأطفال فصار هذا مهندساً وصار ذلك طبيباً، والثالث أصبح محامياً، بينما من لا يزال آباؤهم على قيد الحياة كانوا متعثرين فى دراستهم، فقال أحدهم للآخر: ليتنا نموت حتى يفتح الله باب الرزق على أولادنا.

إذن: فهناك آباء محابس رزق، إذا ذهبوا فاض الله بالرزق على أولادهم، وهذه صورة نراها فى الكون؛ فنعرف أن المسألة فى يد الله سبحانه وتعالى القائل:

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ⑸⑻ ﴾ [الذاريات]

إذن: فالاقتصاد الإسلامى مبنى على وجود حركة فى الكون، ولابد أن تكون هذه الحركة على قدر طاقة المتحركين، وليس على قدر حاجاتهم؛ حتى يكون هناك فائض يأخذه غير القادر من المتحرك القادر.

ثم يعطينا الله سبحانه وتعالى لمحة إيمانية، حينما نرى الفقير غير القادر وهو يتلقى العطاء من أى إنسان غنى يتعب فى عمله، وكأن من هم أغنى منه يعملون ليعطوه، وسبحانه وتعالى حين سلب القوة من هذا الرجل فقد عوَّضه بأن أعطاه ثمرة من جهد وناتج عمل غيره فلا يسخط على اختبار الله تعالى له بالابتلاء.

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

وساعة تسمع كلمة ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ تعرف أن البشارة عادة تكون فى خبر سار، وإن جاءت فى خبر محزن تكون تهكمًا ، فالإنسان الذى هو عزيز قومه ويجعل الناس له اعتباراً ، إن ظلم وطغى وخاف الناس أن يردوه ؛ لأنه لا يخشى الله فيهم، هذا الظالم يُؤتَى به يوم القيامة ويُعذَّب أشد العذاب ، ويقال له :

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان]

وبطبيعة الموقف فى النار هو مهان بعذاب جهنم ولا يمكن أن يكون عزيزاً كريماً، ولكن قول ملائكة النار : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ ﴾، هو تهكم شديد، وهو فى ذلك كقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ [الكهف ٢٩]

وهم ساعةَ يسمعون كلمة ﴿يُغَاثُوا﴾ يفرحون؛ لأن عطشهم شديد وهم قد استغاثوا فقيل لهم إنهم سيغاثون ، وهذا خبر سار بالنسبة لهم، ولكن الإغاثة تأتيهم بماء يشوى وجوههم ، فهل هذه إغاثة ؟ إنه تهكم عليهم وزيادة فى عذابهم ، كذلك قول الحق سبحانه وتعالى هنا : ﴿فَبَشِّرْهُمْ بعذاب أليم﴾ ويصف لنا الحق هذا العذاب الأليم الذى سيتعرضون له، ويُبيِّن لنا خبرَ المغيَّب عنَّا فى الآخرة بصورة مُحَسَّة لنا فيقول :

﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) ﴾